وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾.

﴿ولتعلمنّ نباه﴾ أي: ما يأتيكم عند الموت أو يوم القيامة أو عند ظهور الإسلام وفشوه من صحة خبره، وأنه الحق والصدق وفيه تهديد عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة ص كان له بوزن كل جبل سخره الله لداود عشر حسنات وعصمه أن يصرّ على ذنب صغير أو كبير[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الزمر مكية

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾.

﴿تنزيل الكتاب﴾ قرئ بالرفع على أنه مبتدأ أخبر عنه بالظرف أو خبر مبتدأ محذوف والجار صلة التنزيل كما تقول نزل من عند الله، أو غير صلة كقولك هذا الكتاب من فلان إلى فلان فهو على هذا خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا تنزيل الكتاب هذا من الله أو حال من التنزيل عمل فيها معنى الإشارة، وبالنصب على إضمار فعل نحو اقرأ والزم.

فإن قُلْتَ: ما المراد بالكتاب **قُلْتُ:** الظاهر على الوجه الأوّل أنه القرآن، وعلى الثاني أنه السورة.

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾.

﴿مخلصًا له الدين﴾ ممحضًا له الدين من الشرك والرياء بالتوحيد وتصفية السر، وقرئ الدين بالرفع وحق من رفعه أن يقرأ مخلصًا بفتح اللام كقوله تعالى: ﴿واخلصوا دينهم لله﴾ حتى يطابق قوله:

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾.

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ والخالص والمخلص واحد إلا أن يصف الدين بصفة صاحبه على الإسناد المجازي كقولهم شعر شاعر وأما من جعل مخلصًا حالاً من العابد وله الدين مبتدأ وخبرًا، فقد جاء بإعراب رجع به الكلام إلى قولك لله الدين ألا لله الدين الخالص أي هو الذي وجب اختصاصه بأن يخلص له الطاعة من كل شائبة كدر لاطلاعه على الغيوب والأسرار ولأنه الحقيق بذلك لخلوص نعمته عن استجرار المنفعة بها وعن قتادة الدين الخالص هادة أن لا إله إلا الله وعن الحسن الإسلام ﴿والذين اتخذوا﴾ يحتمل المتخذين، وهم الكفرة والمتخذين وهم الملائكة وعيسى واللات والعزى، عن ابن عباس رضي الله عنهما فالضمير في ﴿اتخذوا﴾ على الأوّل راجع إلى الذين وعلى الثاني إلى المشركين ولم يجر ذكرهم لكونه مفهومًا والراجع إلى الذين محذوف، والمعنى: والذين اتخذهم المشركون أولياء والذين اتخذوا في موضع الرفع على الابتداء.

فإن قُلْتَ: فالخبر ما هو؟ **قُلْتُ:** هو على الأوّل إما ﴿إن الله يحكم بينهم﴾، أو ما أضمر من القول قبل قوله: ﴿ما نعبدهم﴾ وعلى الثاني أنّ الله يحكم بينهم.

فإن قُلْتَ: فإذا كان الله يحكم بينهم الخير فما موضع القول المضمر؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يكون في موضع الحال أي قائلين ذلك، ويجوز أن يكون بدلاً من الصلة فلا يكون له محل كما أنّ المبدل منه كذلك وقرأ ابن مسعود بإظهار القول قالوا: ما نعبدهم، وفي قراءة أبيّ ما نعبدكم إلا لتقربونا على الخطاب حكاية لما خاطبوا به آلهتهم، وقرئ ﴿نعبدهم﴾ بضم النون اتباعًا للعين كما تتبعها الهمزة في الأمر والتنوين في عذاب اركض والضمير في بينهم لهم ولأوليائهم والمعنى أن الله يحكم بينهم بأنه يدخل الملائكة وعيسى الجنة ويدخلهم النار مع الحجارة التي نحتوها وعبدوها من دون الله يعذبهم بها حيث يجعلهم وإياها حصب جهنم، واختلافهم أن الذين يعبدون موحدون وهم مشركون وأولئك يعادونهم ويلعنونهم وهم يرجون شفاعتهم وتقريبهم إلى الله زلفى وقيل: كان المسلمون إذا قالوا لهم من خلق السموات والأرض أقروا وقالوا الله فإذا قالوا لهم فما لكم تعبدون الأصنام قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فالضمير في ﴿بينهم﴾ عائد إليهم وإلى المسلمين، والمعنى: أن الله يحكم يوم القيامة بين المتنازعين من الفريقين، والمراد بمنع الهداية منع اللطف تسجيلاً عليهم بأن لا لطف لهم، وأنهم في علم الله من الهالكين، وقرئ كذاب وكذوب وكذبهم قولهم في بعض من اتخذوا من دون الله أولياء بنات الله ولذلك عقبه محتجًا عليهم بقوله:

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾.

﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء﴾، يعني: لو أراد اتخاذ الولد لامتنع ولم يصح لكونه محالاً ولم يتأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه وقد فعل ذلك بالملائكة فافتتنتم به وغركم اختصاصه إياهم فزعمتم أنهم أولادهُ جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام

(1) ذكره الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي في التفسير: الزيلعي 3/ 195.

والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولادًا ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالبين في الكفر، ثم قال ﴿سبحانه﴾ فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء، ودلّ على ذلك بما ينافيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له وإذا لم يتأت أن يكون له صاحبة لم يتأت أن يكون له ولد وهو معنى قوله أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة، وقهار غلاب لكل شيء ومن الأشياء ألهتهم فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾.

ثم دلّ بخلق السموات والأرض وتكوير كل واحد من الملوين على الآخر وتسخير النيرين وجريهما لأجل مسمى وبث الناس على كثرة عددهم من نفس واحدة وخلق الأنعام على أنه واحد لا يشارك قهار لا يغالب، والتكوير اللفّ واللَّيّ يقال كار العمامة على رأسه وكورها وفيه أوجه منها أن الليل والنهار خلفه يذهب هذا ويغشى مكانه هذا، وإذا غشى مكانه فكأنما ألبسه ولف عليه كما يلف اللباس على اللابس ومنه قول ذي الرمة في وصف السراب:

تلوى الثنايا بأحقيها حواشيه ... ليّ الملاء بأبواب التفاريج

ومنها أنّ كل واحد منهما يغيب الآخر إذا طرأ عليه فشبه في تغييبه إياه بشيء ظاهر لف عليه ما غيبه عن مطامح الأبصار، ومنها أن هذا يكر على هذا كرورًا متتابعًا فشبه ذلك بتتابع أكوار العمامة بعضها على أثر بعض ﴿ألا هو العزيز﴾ الغالب القادر على عقاب المصرين ﴿الغفار﴾ لذنوب التائبين، أو الغالب الذي يقدر على أن يعاجلهم بالعقوبة وهو يحلم عنهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى فسمى الحلم عنهم مغفرة.

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾.

فإن قُلْتَ: ما وجه قوله: ﴿ثم جعل منها زوجها﴾ وما يعطيه من معنى التراخي؟ **قُلْتُ**: هما آيتان من جملة الآيات[1] التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته تشعيب هذا الخلق الفائت للحصر من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه إلا أن إحداهما جعلها الله عادة مستمرّة، والأخرى لم تجر بها العادة ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً، ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود وقيل: ثم متعلق بمعنى واحدة كأنه قيل: خلقكم من نفس وحدت، ثم شفعها الله بزوج وقيل: أخرج ذرية آدم من ظهره كالذر ثم خلق بعد ذلك حواء ﴿وأنزل لكم﴾، وقضى لكم وقسم لأنّ قضاياه وقسمه موصوفة بالنزول[2] من السماء حيث كتب في اللوح كل كائن يكون، وقيل: لا تعيش الأنعام إلا بالنبات والنبات لا يقوم إلا بالماء وقد أنزل الماء فكأنه أنزلها وقيل: خلقها في الجنة، ثم أنزلها ﴿ثمانية أزواج﴾ نكرًا وأنثى من الإبل والبقر والضأن والمعز والزوج اسم لواحد معه آخر فإذا انفراد فهو فرد ووتر قال الله تعالى: ﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى﴾[3] ﴿خلقًا من بعد خلق﴾ حيوانًا سويًا من بعد عظام مكسوة لحمًا من بعد عظام عارية من بعد مضغ من بعد علق من بعد نطف، والظلمات الثلاث البطن والرحم والمشيمة وقيل: الصلب والرحم والبطن ﴿ذلكم﴾ الذي هذه أفعاله هو ﴿الله ربكم﴾ ﴿فأنى تصرفون﴾، فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره.

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾.

﴿فإنّ الله غني عنكم﴾ عن إيمانكم وإنكم المحتاجون إليه لاستضراركم بالكفر واستنفاعكم بالإيمان ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ رحمة لهم لأنه يوقعهم في الهلكة ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي يرض الشكر لكم لأنه سبب فوزكم وفلاحكم، فإن ما ذكره كفركم ولا رضي شكركم إلا لكم ولصلاحكم لا لأنّ منفعة ترجع إليه لأنه الغني الذي لا يجوز عليه الحاجة، ولقد

---

(1) قال أحمد: إنما منعه من حمل ثم على التراخي في الوجود أنها وقعت بين خلق الذرية من آدم وخلق حواء منه، وهو متقدّم على الذرية فضلاً عن كونه متراخياً عن خلق الذرية فلم يستقم حملها على تراخي الوجود لما جعلها في الوجه الآخر متعلقة بمعنى واحدة على تقدير خلقكم من نفس واحدة، ثم جعل منها زوجها =

= يعني: شفعها بزوجها فكانت ههنا على بابها لتراخي الوجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

(2) قال أحمد: ومن هذا النمط بعينه قول الراجز أسنمة الآبال في سحابة.

(3) سورة القيامة، الآية: 39.

تمحل بعض الغواة ليثبت لله تعالى ما نفاه عن ذاته من الرضا لعباده الكفر فقال: هذا من العام[1] الذي أريد به الخاص وما أراد إلا عباده الذين عناهم في قوله إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان يريد المعصومين كقوله تعالى: ﴿عيناً يشرب بها عباد الله﴾[2] تعالى الله عما يقول الظالمون، وقرئ يرضه بضم الهاء بوصل وبغير وصل وبسكونها ﴿خوله﴾ أعطاه قال أبو النجم:

أعطى فلم يبخل ولم يبخل ... كوم الذرى من خول المخول

وفي حقيقته وجهان أحدهما جعله خائل مال من قولهم هو خائل مال، وخال مال إذا كان متعهدًا له حسن القيام به ومنه ما روي عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة[3] والثاني جعله يخول من خال يخول إذا اختال وافتخر وفي معناه قول العرب: إنّ الغني طويل الذيل ميّاس.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾.

﴿وما كان يدعو إليه﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه وقيل: نسي ربه الذي كان يتضرع إليه ويبتهل إليه وما بمعنى من كقوله تعالى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾[4]، وقرئ ليضل بفتح الياء وضمها بمعنى: أنّ نتيجة جعله لله أندادًا ضلاله عن سبيل الله أو إضلاله والنتيجة قد تكون غرضًا في الفعل وقد تكون غير غرض وقوله ﴿تمتع بكفرك﴾ من باب الخذلان والتخلية كأنه قيل له: إذ قد أبيت قبول ما أمرت به من الإيمان والطاعة، فمن حقك ألا تؤمر به بعد ذلك وتؤمر بتركه مبالغة في خذلانه وتخليته، وشأنه لأنه لا مبالغة في الخذلان لأنّ أشدّ من أن يبعث على عكس ما أمر به هو نظيره في المعنى قوله: ﴿متاع قليل ثم مأواهم جهنم﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾.

قرئ ﴿أمن هو قانت﴾ بالتخفيف على إدخال همزة الاستفهام على من، وبالتشديد على إدخال أم عليه ومن مبتدأ خبره محذوف تقديره أمن هو قانت كغيره وإنما حذف لدلالة الكلام عليه وهو جرى ذكر الكافر قبله وقوله: بعده: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ وقيل: معناه: أمن هو قانت أفضل أمن هو كافر أو أهذا أفضل أمن هو قانت على الاستفهام المتصل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: أفضل الصلاة طول القنوت[5]. وهو القيام فيها ومنه القنوت في الوتر لأنه دعاء المصلي قائمًا ﴿ساجدًا﴾ حال، وقرئ ساجد وقائم على أنه خبر بعد خبر والواو للجمع بين الصفتين، وقرئ ويحذر عذاب الآخرة، وأراد بالذين يعلمون العاملين من علماء الديانة كأنه جعل من لا يعمل غير عالم وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا فهم عند الله جهلة حيث جعل القانتين هم العلماء ويجوز أن يراد على سبيل التشبيه أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، وقيل: نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي وعن الحسن أنه سئل عن رجل يتمادى في المعاصي ويرجو[6] فقال: هذا تمنّ وإنما الرجاء قوله وتلا هذه الآية، قرئ إنما ينكر بالإدغام.

---

(1) قال أحمد: إنّ المصر على هذا المعتقد على قلبه رين، أو في ميزان عقله غين أليس يدعي أو يدعى له أنه الخريت في مغائر العبارات، وبديع الزمان في صناعة البديع فكيف نبا عن جادّة الإجادة فهماً وأعار منادى الحذاقة آذناً صماً اللهم إلا أن يكون الهوى إذا تمكن أرى الباطل حقاً وغطى سنى مكشوف العبارة فسحقاً سحقاً! أليس مقتضى العربية فضلاً عن القوانين العقلية أنّ المشروط مرتب على الشرط لا يتصوّر وجود المشروط قبل الشرط عقلاً ولا مضيه واستقبال الشرط لغة وعقلاً واستقر باتفاق الفريقين أهل السنة وشيعة البدعة أنّ إرادة الله تعالى لشكر عباده مثلاً مقدّمة على وجود الشكر منهم، فحينئذٍ كيف ساغ حمل الرضا على الإرادة، وقد جعل في الآية مشروطاً وجزاء وجعل وقوع الشكر شرطاً ومجزياً واللازم من ذلك عقلاً تقدّم المراد، وهو الشكر على الإرادة وهي: الرضا، ولغة تقدّم المشروط على الشرط والزمخشري أخص من قال إن المشروط متى كان ماضياً محضاً لزمته الفاء وقد، كقولك: إن تكرمني فقد أكرمتك قبل. وقد عريت الآية عن الحرفين المذكورين على أنه لا بدّ من تأويل يصحح الشرطية مع ذلك فإذا ثبت بطلان حمل الرضا على الإرادة عقلاً ونقلاً تعين التماس المحمل الصحيح له، وهو المجازاة على الشكر بما عهد أن يجازي به المرضي عنه من= = الثواب والكرامة فيكون معنى الآية، والله أعلم: وإن تشكروا يجازكم على شكركم جزاء المرضي عنه. ولا شك أن المجازاة مستقبلة بالنسبة إلى الشكر فجرى الشرط والجزاء على مقتضاهما لغة وانتظم ذلك بمقتضى الأدلة العقلية على بطلان تقدم المراد على الإرادة عقلاً ومثل هذا يقدر في قوله: ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾، أي: لا يجازي غير الكافر مجازاة المغضوب عليه من الكال والعقوبة.

(2) سورة الإنسان، الآية: 6.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: ما كان النبي ﷺ يتخول لهم بالموعظة والعلم.... (الحديث: 68)، ومسلم في كتاب: صفات المنافقين، باب: الاقتصاد بالموعظة الحديث: (82. 2821).

(4) سورة الليل، الآية: 3.

(5) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (الحديث: 3/8).
وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (306/1).
وذكره الهندي في «كنز العمال» (الحديث: 19657).

(6) قال أحمد: كلام الحسن رضي الله عنه صحيح غير منزل على كلام الزمخشري بقرينة حاله فإنّ الحسن أراد أن المتمادي على المعصية مصراً عليها غير تائب إذا غلب رجاؤه خوفه كان متمنياً؛ لأنّ اللائق بهذا أن يغلب خوفه رجاؤه ولم يرد الحسن إقناط هذا

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾.

﴿في هذه الدنيا﴾ متعلق بأحسنوا لا بحسنة معناه: الذين أحسنوا في هذه الدنيا فلهم حسنة في الآخرة وهي دخول الجنة أي حسنة غير مكتنهة بالوصف وقد علقه السدي بحسنة ففسر الحسنة بالصحة والعافية.

فإن قُلْتَ: إذا علق الظرف بأحسنوا فإعرابه ظاهر فما معنى تعليقه بحسنة، ولا يصح أن يقع صفة لها لتقدمه؟ **قُلْتُ:** هو صفة لها إذا تأخر فإذا تقدم كان بيانًا لمكانها فلم يخل التقدم بالتعلق وإن لم يكن التعلق وصفًا ومعنى **﴿وأرض الله واسعة﴾** أن لا عذر للمفرطين في الإحسان البتة حتى إن اعتلوا بأوطانهم وبلادهم وأنهم لا يتمكنون فيها من التوفر على الإحسان وصرف الهمم إليه قيل لهم: فإن أرض الله واسعة وبلاده كثيرة، فلا تجتمعوا مع العجز وتحولوا إلى بلاد أخر واقتدوا بالأنبياء والصالحين في مهاجرتهم إلى غير بلادهم ليزدادوا إحسانًا إلى إحسانهم وطاعة إلى طاعتهم وقيل: هو للذين كانوا في بلد المشركين فأمروا بالمهاجرة عنه كقوله تعالى: ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ وقيل: هي أرض الجنة و**﴿الصابرون﴾** الذين صبروا على مفارقة أوطانهم وعشائرهم، وعلى غيرها من تجرّع الغصص واحتمال البلايا في طاعة الله وازدياد الخير **﴿بغير حساب﴾** لا يحاسبون عليه وقيل: بغير مكيال وغير ميزان يغرف لهم غرفًا، وهو تمثيل للتكثير وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا يهتدي إليه حساب الْحُسَّابُ ولا يُعْرف وعن النبيّ ﷺ: «ينصب الله الموازين يوم القيامة، فيؤتى بأهل الصلاة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل الحج فيوفون أجورهم بالموازين ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان ولا ينتشر لهم ديوان ويصب عليهم الأجر صبًا»[1] قال الله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾[2] حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل.

قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾.

﴿قل إني أمرت﴾ بإخلاص الدين.

وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾.

﴿وأمرت﴾ بذلك لأجل **﴿أن أكون أوّل المسلمين﴾** أي: مقدمهم وسابقهم في الدنيا والآخرة والمعنى أنّ الإخلاص له السبقة في الدين فمن أخلص كان سابقًا.

فإن قُلْتَ: كيف عطف أمرت على أمرت وهما واحد؟ **قُلْتُ:** ليسا بواحد لاختلاف جهتيهما وذلك أنّ الأمر بالإخلاص وتكليفه شيء والأمر به ليحرز القائم به قصب السبق في الدين شيء، وإذا اختلف وجهًا الشيء وصفناه ينزل بذلك منزلة شيئين مختلفين ولك أن تجعل اللام مزيدة مثله في أردت لأن أفعل، ولا تزاد إلا مع أن خاصة دون الاسم الصريح كأنها زيدت عوضًا من ترك الأصل إلى ما يقوم مقامه كما عوّض السين في أسطاع عوضًا من ترك الأصل الذي هو أطوع، والدليل على هذا الوجه مجيئه بغير لام في قوله وأمرت أن أكون من المسلمين وأمرت أن أكون من المؤمنين، وأمرت أن أكون أوّل من أسلم وفي معناه أوجه أن أكون أوّل من أسلم في زماني، ومن قومي لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها وأن أكون أوّل الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلامًا، وأن أكون أوّل من دعا نفسه إلى ما دعا إليه غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعًا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون، وأن أفعل ما أستحق به الأوّلية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب يعني أنّ الله أمرني أن أخلص له الدين من الشرك والرياء وكلّ شوب بدليل العقل والوحي.

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾.

فإن عصيت ربي بمخالفة الدليلين استوجبت عذابه فلا أعصيه ولا أتابع أمركم ونلك حين دعوه إلى دين آبائه.

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى التكرير في قوله: **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين﴾**[3] وقوله: **﴿قل الله أعبد مخلصًا له ديني﴾** **قُلْتُ:** ليس بتكرير لأنّ الأوّل إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص والثاني إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصًا له دينه ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة

= من رحمة الله تعالى وحاشاه. وأما قرينة حال الزمخشري؛ فإنها تتم على ما أضمره من إيراد هذه المقالة فإن معتقده أن مثل هذا العاصي وإن كان موحداً يجب خلوده في نار جهنم. ولا معنى لرجائه ولتنميته صحة هذا المعتقد أورد مقالة الحسن كالتزام إلى تتميم هذه النزعة وعما قليل يقرع سمعه ما في أنباء هذه السورة.

(1) ذكره الطبراني في معجمه.

(2) قال أحمد: ولقد أحسن في تقوية هذا المعنى في هذه الآية، بقوله: ﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ فإنّ مقابلته بعدم الحصر توجب = (3) سورة الزمر، الآية: 11.

= كونه للحصر، والله أعلم. وما أحسن ما بين وجوه المبالغة في وصف الله تعالى لفظاعة خسرانهم. فقال: استانف الجملة وصدّرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين، وبين في تسمية الشيطان طاغوتاً وجوهاً ثلاثة من المبالغة أحدها تسميته بالمصدر، كأنه نفس الطغيان الثاني: بناؤه على فعلوت وهي صيغة مبالغة كالرحموت وهي الرحمة الواسعة والملكوت، وشبهه الثالث تقديم لامه على عينه ليفيد اختصاص الشيطان بهذه التسمية.

وأخره في الأوجل فالكلام أوّلاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده وثانيًا فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله:

فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾.

﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾ والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخبير المبالغة في الخذلان والتخلية على ما حققت فيه القول مرّتين قل إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم الذين خسروا أنفسهم لوقوعها في هلكة لا هلكة بعدها **﴿و﴾** خسروا **﴿أهليهم﴾** لأنهم ـن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجـ ع بعده إليهم وقبل وخسروهم لأنهم لم يدخلوا مدخل المؤمنين الذين لهم أهل في الجنة يعني: وخسروا أهليهم الذين كانوا يكونون لهم لو آمنوا ولقد وصف خسرانهم بغاية الفظاعة في قوله: **﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾** حيث استأنف الجمل وصدرها بحرف التنبيه ووسط الفصل بين المبتدأ والخبر وعرف الخسران ونعته بالمبين.

لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾.

﴿ومن تحتهم﴾ أطباق من النار هي **﴿ظلل﴾** لآخرين **﴿ذلك﴾** العذاب هو الذي يتوعد الله **﴿به عباده﴾**، ويخوّفهم ليجتنبوا ما يوقعهم فيه **﴿يا عباد فاتقون﴾** ولا تتعرّضوا لما يوجب سخطي وهذه عظة من الله تعالى ونصيحة بالغة، وقرئ: **﴿يا عباد﴾**.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾.

﴿الطاغوت﴾ فعلوت من الطغيان كالملكوت والرحموت إلا أن فيها قلبًا بتقديم اللام على العين أطلقت على الشيطان أو الشياطين لكونها مصدرًا وفيها مبالغات وهي التسمية بالمصدر كأن عين الشيطان طغيان وأنّ البناء بناء مبالغة، فإنّ الرحموت الرحمة الواسعة والملكوت الملك المبسوط والقلب وهو للاختصاص إذ لا تطلق على غير الشيطان والمراد بها ههنا الجمع، وقرئ الطواغيت **﴿أن يعبدوها﴾** بدل من الطاغوت بدل الاشتمال **﴿لهم البشرى﴾** هي البشار بالثواب كقوله تعالى: **﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾**[1] الله عزّ وجل يبشرهم بذلك في وحيه على ألسنة رسله وتتلقاهم الملائكة عند حضور الموت مبشرين وحين يحشرون قال الله تعالى: **﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات﴾**[2]وأراد بعباد.

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾.

وأراد بعباده **﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾** الذين اجتنبوا وأنابوا لا غيرهم، وإنما أراد بهم أن يكونوا مع الاجتناب والإنابة على هذه الصفة فوضع الظاهر موضع الضمير وأراد أن يكونوا نقادًا في الدين يميزون بين الحسن والأحسن والفاضل، والأفضل فإذا اعترضهم أمران واجب وندب اختاروا الواجب وكذلك المباح والندب حرّاصًا على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثوابًا ويدخل تحته المذاهب واختيار أثبتها على السبك وأقواها عند السبر[3] وأبينها دليلاً أو أمارة وأن لا تكون في مذهبه كما قال القائل: ولا تكن مثل عَيْر قيد فانقادا: يريد المقلد وقيل يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن وقيل: يستمعون أوامر الله فيتبعون أحسنها نحو القصاص والعفو والانتصار والإغضاء والإبداء والإخفاء لقوله تعالى: **﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾**[4] **﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾**[5] وعن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساو فيحدّث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه ومن الوقفة من يقف على فبشر عبادي ويبتدئ الذين يستمعون يرفعه على الابتداء وخبره **﴿أولئك﴾** أصل الكلام أمن حق عليه كلمة العذاب، فأنت تنقذه جملة شرطية دخل عليها همزة الإنكار والفاء فاء الجزاء ثم دخلت الفاء التي في أوّلها للعطف على محذوف يدل عليه الخطاب تقديره أأنت مالك أمرهم.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾.

فمن حق عليه العذاب فأنت تنقذه والهمزة الثانية هي الأولى كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد، ووضع من في النار موضع الضمير فالآية على هذا جملة واحدة ووجه آخر وهو أن تكون الآية جملتين أفمن حق عليه العذاب فأنت تخلصه أفأنت تنقذ من في النار وإنما جاز حذف، فأنت تخلصه لأن أفأنت تنقذ يدل عليه نزل استحقاقهم العذاب وهم في الدنيا منزلة دخولهم النار حتى نزل اجتهاد رسول الله ﷺ وكدّه نفسه في دعائهم إلى الإيمان منزلة إنقاذهم من النار، وقوله أفأنت تنقذ يفيد أنّ الله تعالى هو الذي يقدر على الإنقاذ من النار وحده لا يقدر على ذلك أحد غيره، فكما لا تقدر أنت أن تنقذ الداخل في النار من النار لا تقدر أن تخلصه مما هو فيه

---

(1) سورة يونس، الآية: 64.

(2) سورة الحديد، الآية: 12.

(3) قال أحمد: لقد كنت اطمع لعله رجع عما ضمن هذا الكتاب من المذاهب الرديئة والمعتقدات الفاسدة، حتى حققت من كلامه هذا = أنّ ذلك التصميم كان متمكناً من فؤاده الصميم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

(4) سورة البقرة، الآية: 237.

(5) سورة البقرة، الآية: 271.

من استحقاق العذاب بتحصيل الإيمان فيه.

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾.

﴿غرف من فوقها غرف﴾ علالي بعضها فوق بعض.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله **﴿مبنية﴾**! **قُلْتُ:** معناه والله أعلم أنها بنيت بناء المنازل التي على الأرض وسوّيت تسويتها **﴿تجري من تحتها الأنهار﴾** كما تجري من تحت المنازل من غير تفاوت بين العلوّ والسفل **﴿وَعْد الله﴾** مصدر مؤكد لأنّ قوله لهم: غرف في معنى وعدهم الله ذلك.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾.

﴿أنزل من السماء ماء﴾ هو المطر وقيل: كل ماء في الأرض، فهو من السماء ينزل منها إلى الصخرة ثم يقسمه الله **﴿فسلكه﴾** فأدخله ونظمه **﴿ينابيع في الأرض﴾** عيونًا ومسالك ومجاري كالعروق في الأجساد **﴿مختلفًا ألوانه﴾** هيئاته من خضرة وحمرة وصفرة وبياض وغير ذلك وأصنافه من برّ وشعير وسمسم وغيرها **﴿يهيج﴾** يتم جفافه عن الأصمعي لأنه إذا تم جفافه حان له أن يثور عن منابته ويذهب **﴿حطامًا﴾** فتاتًا ودرينًا **﴿إنّ في ذلك لذكرى﴾** لتذكيرًا وتنبيهًا على أنه لا بدّ من صانع حكيم وأن ذلك كائن عن تقدير وتدبير لا عن تعطيل وإهمال ويجوز أن يكون مثلاً للدنيا كقوله تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا﴾[1] ﴿واضْرِبْ لهم مثل الحياة الدنيا﴾[2] وقرئ مصفارًا.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾.

﴿أفمن﴾ عرف الله أنه من أهل اللطف فلطف به حتى انشرح صدره للإسلام ورغب فيه وقبله كمن لا لطف له فهو حرج الصدر قاسي القلب، ونور الله هو لطفه وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية فقيل: يا رسول الله كيف انشراح الصدر قال: إذا دخل النور القلب انشرح وانفسح فقيل: يا رسول الله فما علامة ذلك قال: الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والتأهب للموت قبل نزول الموت[3] وهو نظير قوله أمن هو قانت في حنف الخبر **﴿من ذكر الله﴾** من أجل ذكره أي إذا ذكر الله عندهم أو آياته اشمأزوا، وازدادت قلوبهم قساوة كقوله تعالى: فزادتهم رجسًا إلى رجسهم وقرئ عن ذكر الله.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين من وعن في هذا؟ **قُلْتُ:** إذا قلت قسا قلبه من ذكر الله فالمعنى ما ذكرت من أن القسوة من أجل الذكر وبسببه وإذا قلت عن ذكر الله فالمعنى غلظ عن قبول الذكر وجفا عنه ونظيره سقاه من العيمة أي من أجل عطشه وسقاه عن العيمة إذا أرواه حتى أبعده عن العطش، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلُّوا مَلّة فقالوا له: حدثنا فنزلت. وإيقاع اسم الله مبتدأ، وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث ورفع منه واستشهاد على حسنه وتأكيد لاستناده إلى الله وإنه من عنده وإنّ مثله لا يجوز أن يصدر إلا عنه وتنبيه على أنه وحي معجز مباين لسائر الأحاديث.

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾.

و **﴿كتابًا﴾** يدل من أحسن الحديث، ويحتمل أن يكون حالاً منه **﴿ومتشابهًا﴾** مطلق في مشابهة بعضه بعضًا فكان متناولاً لتشابه معانيه في الصحة والإحكام، والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتبكيت ويجوز أن يكون **﴿مثاني﴾** بيانًا لكونه متشابهًا لأنّ القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة والمثاني جمع مثنى بمعنى: مردد ومكرر لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه وقيل: لأنه يثنى في التلاوة فلا يمل كما جاء في وصفه لا يتفه ولا يتشان ولا يخلق على كثرة الرد[4]، ويجوز أن يكون جمع مثنى مفعل من التثنية بمعنى التكرير والإعادة كما كان قوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرّتين﴾ بمعنى كرّة بعد كرّة وكذلك لبيك وسعديك وحنانيك.

فإن قُلْتَ: كيف وصف الواحد بالجمع؟ **قُلْتُ:** إنما صحّ ذلك لأنّ الكتاب جملة ذات تفاصيل وتفاصيل الشيء هي جملته لا غير ألا ترى تقول القرآن أسباع وأخماس وسور وآيات وكذلك تقول: أقاصيص وأحكام ومواعظ مكررات ونظيره قولك: الإنسان عظام وعروق وأعصاب إلا أنك تركت الموصوف إلى الصفة وأصله كتابًا متشابهًا فصولاً مثاني، ويجوز أن يكون كقولك برمة أعشار وثوب أخلاق ويجوز أن لا يكون مثاني صفة ويكون منتصبًا على التمييز من متشابهًا كما تقول: رأيت رجلاً حسنًا شمائل والمعنى متشابهة مثانيه.

فإن قُلْتَ: ما فائدة التثنية والتكرير؟ **قُلْتُ:** النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عودًا عن بدء لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة

---

(1) سورة يونس، الآية: 24.

(2) سورة الكهف، الآية: 45.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/311.

(4) أخرجه أحمد في مسنده عن ابن مسعود: 1/405.

رسول الله ﷺ أن يكرر عليهم ما كان يعظ به وينصح ثلاث مرات وسبعًا[1] ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم اقشعر الجلد إذا تقبض تقبضًا شديدًا وتركيبه من حروف القشع، وهو الأديم اليابس مضمومًا إليها حرف رابع وهو الراء ليكون رباعيًا ودالاً على معنى زائد يقال اقشعر جلده من الخوف وقف شعره، وهو مثل في شدّة الخوف فيجوز أن يريد به الله سبحانه التمثيل تصويرًا لإفراط خشيتهم وأن يريد التحقيق والمعنى أنهم إذا سمعوا بالقرآن وبآيات وعيده أصابتهم خشية تقشعر منها جلودهم، ثم إذا ذكروا الله ورحمته وجوده بالمغفرة لانت جلودهم وقلوبهم وزال عنها ما كان بها من الخشية والقشعريرة.

فإن قُلْتَ: ما وجه تعدية لانّ بإلى؟ **قُلْتُ:** ضمن معنى فعل متعد بإلى كأنه قيل: سكنت أو اطمأنت إلى ذكر الله لينة غير متقبضة راجية غير خاشية.

فإن قُلْتَ: فلم اقتصر على ذكر الله من غير ذكر الرحمة؟ **قُلْتُ:** لأنّ أصل أمره الرحمة والرأفة ورحمته هي سابقة غضبه فلاصالة رحمته إذا ذكر لم يخطر بالبال قبل كل شيء من صفاته إلا كونه رؤفًا رحيمًا.

فإن قُلْتَ: لم ذكرت الجلود وحدها أوّلاً ثم قرنت بها القلوب ثانيًا؟ **قُلْتُ:** إذا ذكرت الخشية التي محلها القلوب فقد ذكرت القلوب فكأنه قيل: تقشعر جلودهم من آيات الوعيد وتخشى قلوبهم في أوّل وهلة فإذا ذكروا الله ومبنى أمره على الرأفة والرحمة استبدلوا بالخشية رجاء في قلوبهم وبالقشعريرة لينًا في جلودهم **﴿ذلك﴾** إشارة إلى الكتاب وهو **﴿هدى الله يهدي به﴾** يوفق به من يشاء يعني عباده المتقين حتى يخشوا تلك الخشية ويرجوا ذلك الرجاء كما قال: **﴿هدى للمتقين﴾ ﴿ومن يضلل الله﴾** ومن يخذله من الفساق والفجرة **﴿فما له من هاد﴾** أو ذلك الكائن من الخشية والرجاء هدى الله أي أثر هداه وهو لطفه فسماه هدى لأنه حاصل بالهدى **﴿يهدي به﴾** بهذا الأثر من يشاء من عباده يعني: من صحب أولئك وراآهم خاشين راجين فكان ذلك مرغبًا لهم في الاقتداء بسيرتهم وسلوك طريقتهم ومن يضلل الله ومن لم يؤثر فيه ألطافه لقسوة قلبه وإصراره على فجوره فما له من هاد من مؤثر فيه بشيء قط يقال اتقاه بدرقته استقبله بها فوقى بها نفسه إياه واتقاه بيده وتقديره.

أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾.

﴿أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب﴾ كمن أمِنَ العذاب، فحذف الخبر[2] كما حذف في نظائره وسوء العذاب شدّته ومعناه أن الإنسان إذا لقي مخوفًا من المخاوف استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه لأنه أعز أعضائه عليه والذي يلقى في النار يلقى مغلولة يداه إلى عنقه فلا يتهيأ له أن يتقي النار إلا بوجهه الذي كان يتقي المخاوف بغيره وقاية له ومحاماة عليه وقيل: المراد بالوجه الجملة وقيل: نزلت في أي جهل **﴿وقيل﴾** لهم: خزنة النار **﴿ذوقوا﴾** وبال **﴿ما كنتم تكسبون﴾**.

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿من حيث لا يشعرون﴾ من الجهة التي لا يحتسبون ولا يخطر ببالهم أن الشر يأتيهم منها بينا هم آمنون رافهون إذ فوجئوا من مأمنهم.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾.

والخزي: الذل والصغار كالمسخ والخسف والقتل والجلاء وما أشبه ذلك من نكال الله.

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾.

﴿قرآنًا عربيًا﴾ حال مؤكدة كقولك جاءني زيد رجلاً صالحًا وإنسانًا عاقلاً، ويجوز أن ينتصب على المدح **﴿غير ذي عوج﴾** مستقيمًا بريئًا من التناقض والاختلاف.

فإن قُلْتَ: فهلا قيل مستقيمًا أو غير معوج! **قُلْتُ:** فيه فائدتان إحداهما نفي أن يكون فيه عوج قط كما قال: ولم يجعل له عوجًا والثانية أن لفظ العوج مختص بالمعاني دون الأعيان وقيل: المراد بالعوج الشك واللبس وأنشد:

وقد أتاك يقين غير ذي عوج ... من الإلـه وقول غير مكذوب

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾.

واضرب قومك مثلاً وقل لهم ما تقولون في رجل من المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف، وتنازع كل واحد منهم يدعي أنه عبدهم فهم يتجاذبونه، ويتعاورونه في مهن شتى ومشادة وإذا عنت له حاجة تدافعوه فهو متحير في أمره سادر قد تشبعت الهموم قلبه وتوزعت أفكاره لا يدري أيهم يرضى بخدمته وعلى أيهم يعتمد في حاجاته، وفي آخر قد سلم لمالك واحد وخلص له فهو معتنق لما لزمه من خدمته معتمد عليه فيما يصلحه فهمه واحد وقلبه مجتمع أي هذين العبدين أحسن حالاً وأجمل

---

(1) أخرجه البخاري في كتاب: العلم، باب: من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه (الحديث: 95)، وأحمد في المسند 3/213.

(2) قال أحمد: الملقى في النار والعياذ بالله لم يقصد الاتّقاء بوجهه، = ولكنه لم يجد ما يتقي به النار غير وجهه، ولو وجد لفعل فلما لقيها بوجهه كانت حاله حال المتقي بوجهه، فعبر ذلك بالاتقاء من باب المجاز التمثيلي، والله أعلم.

شائًا والمراد تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، وما يلزمه على قضية مذهبه من أن يدعي كل واحد منهم عبوديته ويتشاكسوا في ذلك ويتغالبوا كما قال تعالى: ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾[1] ويبقى هو متحيرًا ضائعًا لا يدري أيهم يعبد وعلى ربوبية أيهم يعتمد وممن يطلب رزقه وممن يلتمس رفقه فهمه شعاع وقلبه أوزاع وحال من لم يثبت إلا إلهًا واحدًا فهو قائم بما كلفه عارف بما أرضاه، وما أسخطه متفضل عليه في عاجله مؤمل للثواب في آجله و ﴿فيه﴾ صلة شركاء كما تقول اشتركوا فيه والتشاكس والتشاخس الاختلاف تقول تشاكست أحواله وتشاخست أسنانه ﴿سالمًا لرجل﴾ خالصًا، وقرئ سَلَمًا بفتح الفاء والعين وفتح الفاء وكسرها مع سكون العين وهي مصادر سلم والمعنى ذا سلامة لرجل أي ذا خلوص له من الشركة من قولهم سلمت له الضيعة، وقرئ بالرفع على الابتداء أي وهناك رجل سالم لرجل وإنما جعله رجلاً ليكون أفطن لما شقى به أو سعد فإن المرأة والصبي قد يغفلان عن ذلك ﴿هل يستويان مثلاً﴾ هل يستويان صفة على التمييز والمعنى: هل يستوي صفتاهما وحالاهما وإنما اقتصر في التمييز على الواحد لبيان الجنس وقرئ مثلين كقوله تعالى: ﴿وأكثر أموالاً وأولادًا﴾[2] مع قوله أشدّ منهم قوّة، ويجوز فيمن قرأ مثلين أن يكون الضمير في يستويان للمثلين لأن التقدير مثل رجل ومثل رجل والمعنى: هل يستويان فيما يرجع إلى الوصفية كما تقول: كفى بهما رجلين ﴿الحمد لله﴾ الواحد الذي لا شريك له دون كل معبود سواه أي يجب أن يكون الحمد متوجهًا إليه وحده، والعبادة فقد ثبت أنه لا إله إلاّ هو ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون به غيره كانوا يتربصون برسول الله ﷺ موته، فأخبر أن الموت يعمهم فلا معنى للتربص وشماتة الباقي بالفاني وعن قتادة: نعى إلى نبيه نفسه ونعي إليكم أنفسكم.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾.

وقرئ ميت وميتون والفرق بين الميت والمائت[3] أن الميت صفة لازمة كالسيد وأما المائت فصفة حادثة تقول زيد مائت غدًا كما تقول سائد غدًا أي سيموت وسيسود، وإذا قلت زيد ميت فكما تقول حي في نقيضه فيما يرجع إلى اللزوم والثبوت والمعنى في قوله: ﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ إنك وإياهم وإن كنتم أحياء فأنتم في عداد الموتى لأنّ ما هو كائن، فكأن قد كان.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾.

﴿ثم إنكم﴾ ثم إنك وإياهم فغلب ضمير المخاطب على ضمير الغيب ﴿تختصمون﴾ فتحتج أنت عليهم بأنك بلغت فكنبوا فاجتهدت في الدعوة فلجوا في العناد ويعتذرون بما لا طائل تحته تقول الأتباع أطعنا سادتنا وكبراءنا، وتقول السادات أغوتنا الشياطين وآباؤنا الأقدمون وقد حمل على اختصام الجميع وأن الكفار يخاصم بعضهم بعضًا حتى يقال لهم: لا تختصموا لديّ والمؤمنون الكافرين يبكتوهم بالحجج، وأهل القبلة يكون بينهم الخصام قال عبد الله بن عمر لقد عشنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية أنزلت فينا وفي أهل الكتاب قلنا كيف نختصم ونبينا واحد وديننا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فيها[4]، وقال أبو سعيد الخدري: كما نقول ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم، هو هذا[5] وعن إبراهيم النخعي: قالت الصحابة: ما خصومتنا، ونحن إخوان؟ فلما قتل عثمان رضي الله عنه قالوا: هذه خصومتنا[6]. عن أبي العالية: نزلت في أهل القبلة والوجه الذي يدل عليه كلام الله هو ما قدمت أولاً ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله﴾[7] وقوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾[8] وما هو إلا بيان وتفسير للذين يكون بينهم الخصومة.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾.

﴿والذي جاء بالصدق وصدق به﴾ هو رسول الله ﷺ جاء بالصدق وآمن به وأراد به إياه ومن تبعه كما أراد بموسى إياه وقومه في قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون، فلذلك قال: ﴿أولئك هم المتقون﴾ إلا أن هذا في الصفة وذاك في الاسم ويجوز أن يريد والفوج أو الفريق الذي جاء بالصدق وصدق به وهم الرسول الذي جاء بالصدق وصحابته الذين صدقوا به وفي قراءة ابن مسعود والذين جاؤا بالصدق وصدقوا به، وقرئ وصدق به

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 91.

(2) سورة التوبة، الآية: 69.

(3) قال أحمد: فاستعمال ميت مجاز إذ الخطاب مع الأحياء، واستعمال مائت حقيقة إذ لا يعطي اسم الفاعل وجود الفعل حال الخطاب ونظيره قوله تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾، يعني: توفي الموت والتي لم تمت في منامها، أي: يتوفاها حين المنام تشبيهاً للنوم بالموت كقوله: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾ فيمسك الأنفس التي قضى عليها الموت الحقيقي، أي: لا يردها في وقتها = حية ويرسل الأخرى، أي: النائمة إلى الأجل الذي سماه، أي: قدره لموتها الحقيقي هذا أوضح ما قيل في تفسير الآية، والله أعلم.

(4) أخرجه الحاكم في المستدرك، 4/572.

(5) ذكره الثعلبي تعليقًا، الزيلعي 3/204.

(6) رواه عبد الرزاق في تفسيره والطبري والثعلبي، الزيلعي 3/204.

(7) سورة الزمر، الآية: 32.

(8) سورة الزمر، الآية: 33.

بالتخفيف أي: صدق به الناس ولم يكذبهم به يعني: أداه إليهم كما نزل عليه من غير تحريف، وقيل: صار صادقًا به أي: بسببه لأنّ القرآن معجزة والمعجزة تصديق من الحكيم الذي لا يفعل القبيح لمن يجريها على يده ولا يجوز أن يصدق إلا لصادق، فيصير لذلك صادقًا بالمعجزة وقرئ: وصَدَّقَ به.

﴿كذب على الله﴾ افترى عليه بإضافة الولد والشريك إليه. **﴿وكذب بالصدق﴾** بالأمر الذي هو الصدق بعينه، وهو ما جاء به محمد ﷺ **﴿إذ جاءه﴾** فاجأه بالتكذيب لما سمع به من غير وقفة لإعمال روية واهتمام بتمييز بين حق وباطل كما يفعل أهل النصفة فيما يسمعون **﴿مثوى للكافرين﴾** أي لهؤلاء الذين كذبوا على الله وكذبوا بالصدق، واللام في للكافرين إشارة إليهم.

لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾.

فإن قُلْتَ: ما معنى إضافة الأسوأ والأحسن إلى الذي عملوا، وما معنى التفضيل فيهما؟ **قُلْتُ:** أما الإضافة فما هي من إضافة أفعل إلى الجملة التي يفضل عليها ولكن من إضافة الشيء إلى ما هو بعضه من غير تفضيل كقولك الأشج أعدل بني مروان وأما التفضيل، فإيذان بأن السيء الذي يفرط منهم من الصغائر والزلات المكفرة هو عندهم الأسوأ لاستعظامهم المعصية والحسن الذي يعملونه هو عند الله الأحسن لحسن إخلاصهم فيه فلذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالأحسن، وقرئ: أسواء الذي عملوا جمع سوء.

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ أدخلت همزة الإنكار على كلمة النفي، فأفيد معنى إثبات الكفاية وتقريرها قرئ: بكاف عبده وهو رسول الله ﷺ وبكاف عباده وهم الأنبياء، وذلك أن قريشًا قالت لرسول الله ﷺ: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا وإنا نخشى عليك معرتها لعيبك إياها ويروى أنه بعث خالدًا إلى العزى ليكسرها فقال له سادنها: أحذركها يا خالد إن لها لشدة لا يقوم لها شيء فعمد خالدًا إليها فهشم أنفها، فقال الله عز وجل: أليس الله بكاف نبيه أن يعصمه من كل سوء ويدفع عنه كل بلاء في مواطن الخوف وفي هذا تهكم بهم لأنهم خوفوه ما لا يقدر على نفع ولا ضر أو أليس الله بكاف أنبياءه، ولقد قالت: أممهم نحو ذلك فكفاهم الله وذلك قول قوم هود إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، ويجوز أن يريد العبد والعباد على الإطلاق لأنه كافيهم في الشدائد وكافل مصالحهم، وقرئ: بكافي عباده على الإضافة ويكافي عباده ويكافي يحتمل أن يكون غير مهموز مفاعلة من الكفاية كقولك: يجازي في يجزي، وهو أبلغ من كفى لبنائه على لفظ المبالغة والمباراة أن يكون مهموزًا من المكافأة وهي المجازاة لما تقدّم من قوله: ويجزيهم أجرهم **﴿بالذين من دونه﴾** أراد الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾.

﴿بعزيز﴾ بغالب منيع **﴿ذي انتقام﴾** ينتقم من أعدائه وفيه وعيد لقريش ووعد للمؤمنين بأنه ينتقم لهم منهم وينصرهم عليهم.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾.

قرئ: **﴿كاشفات﴾** ضره وممسكات رحمته بالتنوين على الأصل وبالإضافة للتخفيف.

فإن قُلْتَ: لم فرض المسألة في نفسه دونهم؟ **قُلْتُ:** لأنهم خوّفوه معرّة الأوثان وتخبيلها، فأمر بأن يقرّرهم أوّلاً بأنّ خالق العالم هو الله وحده ثم يقول لهم بعد التقرير: فإذا أرادني خالق العالم أقررتم به بضر من مرض، أو فقر أو غير ذلك من النوازل أو برحمة من صحة أو غنى أو نحوهما هل هؤلاء اللاتي خوّفتموني إياهن كاشفات عني ضره، أو ممسكات رحمته حتى إذا ألقمهم الحجر وقطعهم حتى لا يحيروا ببنت شفة قال **﴿حسبي الله﴾** كافيًا لمعرّة أوثانكم **﴿عليه يتوكل المتوكلون﴾** وفيه تهكم ويروى أنّ النبي ﷺ سألهم فسكتوا **﴿فنزل قل حسبي الله﴾**.

فإن قُلْتَ: لم قيل كاشفات، وممسكات على التأنيث بعد قوله تعالى: **﴿ويخوفونك بالذين من دونه﴾** **قُلْتُ:** أنثهن وكن إناثًا وهن اللات والعزى ومناة قال الله تعالى: **﴿أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى﴾**[1] ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف، وتعجيز عما طالبهم به من كشف الضر وإمساك الرحمة لأنّ الأنوثة من باب اللين والرخاوة كما أنّ الذكورة من باب الشدّة والصلابة كأنه قال: الإناث اللاتي هنّ اللات اللات والعزى ومناة أضعف مما تدعون لهنّ وأعجز وفيه تهكم أيضًا.

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾.

﴿على مكانتكم﴾ على حالكم التي أنتم عليها وجهتكم من العداوة التي تمكنتم منها والمكانة بمعنى: المكان فاستعيرت عن العين للمعنى كما يستعار هنا وحيث الزمان وهما للمكان.

(1) سورة النجم، الآية: 19 ـ 20.

فإن قُلْتَ: حق الكلام فإني عامل على مكانتي فلم حنف؟ **قُلْتُ:** للاختصار ولما فيه من زيادة الوعيد والإيذان بأنّ حاله لا تقف، وتزداد كل يوم قوّة وشدّة لأنّ الله ناصره ومعينه ومظهره على الدين كله ألا ترى إلى قوله **﴿فسوف تعلمون من يأتيه﴾**.

مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾.

كيف توعدهم بكونه منصورًا عليهم غالبًا عليهم في الدنيا والآخرة لأنهم إذا أتاهم الخزي والعذاب فذاك عزه وغلبته من حيث أنّ الغلبة تتم له بعز عزيز من أوليائه وبذل نليل من أعدائه **﴿يخزيه﴾** مثل مقيم في وقوعه صفة للعذاب أي عذاب مخز له وهو يوم بدر وعذاب دائم وهو عذاب النار، وقرئ مكاناتكم.

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾.

﴿للناس﴾ لأجلهم ولأجل حاجتهم إليه ليبشروا وينذروا فتقوى دواعيهم إلى اختيار الطاعة على المعصية ولا حاجة لي إلى ذلك فأنا الغني فمن اختار الهدى فقد نفع نفسه ومن اختار الضلالة فقد ضرها، وما وكلت عليهم لتجبرهم على الهدى فإنّ التكليف مبني على الاختيار دون الإجبار.

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾.

﴿الأنفس﴾ الجمل كما هي، وتوفيها إماتتها وهو أن يسلب ما هي به حية حساسة درّاكة من صحة أجزائها وسلامتها لأنها عند سلب الصحة كأن ذاتها قد سلبت **﴿والتي لم تمت في منامها﴾** يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها أي: يتوفاها حين تنام تشبيهًا للنائمين بالموتى ومنه قوله تعالى: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل﴾[1] حيث لا يميزون ولا يتصرفون كما أنّ الموتى كذلك **﴿فيمسك﴾** الأنفس **﴿التي قضى عليها الموت﴾** الحقيقي أي لا يردّها في وقتها حية **﴿ويرسل الأخرى﴾** النائمة **﴿إلى أجل مسمى﴾** إلى وقت ضربه لموتها وقيل: يتوفى الأنفس يستوفيها، ويقبضها وهي الأنفس التي تكون معها الحياة والحركة ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها وهي أنفس التمييز قالوا فالتي تتوفى في النوم هي نفس التمييز لا نفس الحياة لأنّ نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس والنائم يتنفس ورووا، عن ابن عباس رضي الله عنهما في ابن آدم نفس وروح بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس التي بها العقل، والتمييز والروح التي بها النفس والتحرّك فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه[2] والصحيح ما ذكرت أوّلاً لأنّ الله عزّ وعلا علق التوفي والموت والمنام جميعًا بالأنفس وما عنوا بنفس الحياة، والحركة ونفس العقل والتمييز غير متصف بالموت والنوم وإنما الجملة هي التي تموت وهي التي تنام **﴿إنّ في ذلك﴾** إنّ في توفي الأنفس مائتة ونائمة وإمساكها وإرسالها إلى أجل لآيات على قدرة الله وعلمه لقوم يجبلون فيه أفكارهم ويعتبرون، وقرئ قضى عليها الموت على البناء للمفعول.

أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾.

﴿أم اتخذوا﴾ بل اتخذ قريش والهمزة للإنكار من دون الله من دون إذنه شفعاء حين قالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿قل لله الشفاعة جميعًا﴾ أي هو مالكها فلا يستطيع أحد شفاعة إلا بشرطين أن يكون المشفوع له مرتضى وأن يكون الشفيع مأذونًا له، وههنا الشرطان مفقودان جميعًا **﴿أو لو كانوا﴾** معناه أيشفعون ولو كانوا **﴿لا يملكون شيئًا ولا يعقلون﴾** أي ولو كانوا على هذه الصفة لا يملكون شيئًا قط حتى يملكوا الشفاعة ولا عقل لهم **﴿له ملك السموات والأرض﴾** تقرير لقوله تعالى: **﴿لله الشفاعة جميعًا﴾** لأنه إذا كان له الملك كله والشفاعة من الملك كان مالكًا لها.

فإن قُلْتَ: بم يتصل قوله **﴿ثم إليه ترجعون﴾**! **قُلْتُ:** بما يليه معناه له ملك السموات والأرض اليوم، ثم إليه ترجعون يوم القيامة فلا يكون الملك في ذلك اليوم إلا له فله ملك الدنيا والآخرة مدار المعنى على قوله وحده أي.

وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾.

إذا أفرد الله بالذكر ولم يذكر معه آلهتهم اشمأزوا أي نفروا وانقبضوا **﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾** وهم آلهتهم ذكر الله معهم أولم يذكر استبشروا لافتتانهم بها ونسيانهم حق الله إلى هواهم فيها وقيل: إذا قيل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له نفروا لأن فيه نفيًا لآلهتهم، وقيل: أراد استبشارهم بما سبق إليه لسان رسول الله ﷺ من ذكر آلهتهم حين قرأ والنجم عند باب الكعبة فسجدوا معه لفرحهم ولقد تقابل الاستبشار، والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأنّ الاستبشار أن يمتلئ قلبه سرورًا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهلل والاشمئزاز أن يمتلئ

(1) سورة الأنعام، الآية: 60.

(2) قال الزيلعي غريب جدًا 3/205.

غمًا وغيظًا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه.

فإن **قُلْتَ**:ما العامل في إذا ذكر! **قُلْتُ**:العامل في إذا المفاجأة تقديره وقت ذكر الذين من دون فاجأوا وقت الاستبشار بعل رسول الله ﷺ بهم، وبشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد فقيل له: ادع الله بأسمائه العظمى وقل أنت وحدك تقدر على الحكم بيني وبينهم ولا حيلة لغيرك فيهم، وفيه وصف لحالهم وإعذار لرسول الله ﷺ وتسلية له ووعيد لهم وعن الربيع بن خثيم، وكان قليل الكلام انه أخبر بقتل الحسين رضي الله عنه وسخط على قاتله وقالوا: الآن يتكلم فما زاد على أن قال: آه أو قد فعلوا وقرأ هذه الآية، وروي أنه قال على أثره قتل من كان رسول الله ﷺ يجلسه في حجره، ويضع فاه على فيه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وبدا لهم من الله﴾ وعيد لهم لا كنه لفظاعته وشدّته وهو نظير قوله تعالى في الوعد: **﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم﴾** والمعنى: وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يكن قط في حسابهم ولم يحدثوا به نفوسهم وقيل: عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات وعن سفيان الثوري أنه قرأها فقال: ويل لأهل الرياء ويل لأهل الرياء وجزع محمد بن المنكدر عند موته فقيل له فقال: أخشى آية من كتاب الله وتلاها، فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسبه.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي سيئات أعمالهم التي كسبوها أو سيئات كسبهم حين تعرض صحائفهم وكانت خافية عليهم كقوله تعالى: أحصاه الله، ونسوه أو أراد بالسيئات أنواع العذاب التي يجازون بها على ما كسبوا فسماها سيئات كما قال وجزاء سيئة سيئة مثلها **﴿وحاق بهم﴾** ونزل بهم وأحاط جزاء هزئهم.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

التخويل مختص بالتفضل يقال خولني إذا أعطاك على غير جزاء **﴿على علم﴾** أي على علم مني أني سأعطاه لما فيّ من فضل، واستحقاق أو على علم من الله بي وباستحقاقي[1] أو على علم مني بوجوه الكسب كما قال قارون: على علم عندي.

فإن **قُلْتَ**:لِمَ ذكر الضمير في أوتيته وهو للنعمة؟ **قُلْتُ**: ذهابًا به إلى المعنى لأنّ قوله نعمة منا شيئًا من النعم وقسمًا منها، ويحتمل أن تكون ما في إنما موصولة لا كافة فيرجع إليها الضمير على معنى أنّ الذي أوتيته على علم **﴿بل هي فتنة﴾** إنكار لقوله كانه قال: ما خوّلناك ما خوّلناك من النعمة لما تقول بل هي فتنة أي ابتلاء وامتحان لك أتشكر أم تكفر.

فإن **قُلْتَ**:كيف ذكر الضمير ثم أنثه؟ **قُلْتُ**:حملاً على المعنى أوّلاً وعلى اللفظ آخرًا ولأن الخبر لما كان مؤنثًا أعني فتنة ساغ تأنيث المبتدأ لأجله لأنه في معناه كقولهم ما جاءت حاجتك، وقرئ بل هو فتنة على وفق إنما أوتيته.

فإن **قُلْتَ**:ما السبب في عطف هذه الآية الفاء وعطف مثلها في أوّل السورة بالواو؟ **قُلْتُ**:السبب في ذلك أنّ هذه، وقعت مسببة عن قوله وإذا ذكر الله وحده[2] اشمأزّت على معنى: أنهم يشمئزون عن ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مس أحدهم ضر دعا من اشمأزّ من ذكره دون من استبشر بذكره وما بينهما من الآي اعتراض.

فإن **قُلْتَ**:حق الاعتراض أن يؤكد المعترض بينه وبينه **قُلْتُ**:ما في الاعتراض من دعاء رسول الله ﷺ ربه بأمر منه، وقوله أنت تحكم بينهم ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تاكيد لإنكار اشمئزازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله في الشدائد دون آلهتهم كأنه قيل: يا رب لا يحكم بيني وبين هؤلاء الذين يجترؤن عليك مثل هذه الجراءة ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت، وقوله لو أنّ للذين ظلموا متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقًا أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل، ولو أنّ لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به حين أحكم عليهم بسوء العذاب، وهذه الأسرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجبة في أكمامها وأما الآية الأولى فلم تقع مسببة وما هي إلا جملة ناسبت جملة قبلها فعطفت عليها بالواو، وكقولك قام زيد وقعد عمرو.

فإن **قُلْتَ**:من أي وجه، وقعت مسببة والاشمئزاز عن ذكر الله ليس بمقتضى لالتجائهم إليه بل هو مقتض لصدوفهم عنه **قُلْتُ**:في هذا التسبيب لطف وبيانه أنك تقول: زيد مؤمن بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فهذا تسبيب ظاهر

---

(1) قال أحمد:كذلك يقول علي قدري: تمنى على الله أن يثيبه في الآخرة أن الفرق بين حمد الدنيا، وحمد الآخرة. أنّ حمد الدنيا واجب على العبد؛ لأنه على نعمة متفضل بها، وحمد الآخرة ليس بواجب عليه؛ لأنه على نعمة واجبة على الله عزّ وجل، ولقد صدق الله إذ يقول: وهي فتنة إنما سلم منها أهل السنة إذ يعتقدون أنّ الثواب بفضل الله وبرحمته لا باستحقاق، ويتبعون في = ذلك قول سيد البشر ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته» فما أحمق من مني نفسه، وركب رأسه، وطمع أنه يستحق على الله الجنة.

(2) قال أحمد:كلام جليل فافهمه فضلاً عن مشبه قليل.

لا لبس فيه، ثم تقول زيد كافر بالله فإذا مسه ضر التجأ إليه فتجيء بالفاء مجيئك به ثمة كأنّ الكافر حين التجأ إلى الله التجاء المؤمن إليه مقيم كفره مقام الإيمان ومجريه مجراه في جعله سببًا في الالتجاء فأنت تحكي ما عكس فيه الكافر الا ترى أنك تقصد بهذا الكلام والانكار والتعجب من فعله، الضمير في.

قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾.

﴿قالها﴾ راجع إلى قوله إنما أوتيته على علم لانها كلمة أو جملة من القول، وقرئ قد قاله على معنى القول والكلام ونلك والذين مِنْ قبلهم هم قارون وقومه حيث قال: إنما أوتيته على علم عندي وقومه راضون بها فكانهم قالوها، ويجوز أن يكون في الأمم الخالية آخرون قائلون مثلها **﴿فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾** من متاع الدنيا ويجمعون منه.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾.

﴿من هؤلاء﴾ من مشركي قومك **﴿سيصيبهم﴾** مثل ما أصاب أولئك فقتل صناديدهم ببدر وحبس عنهم الرزق فقحطوا سبع سنين.

أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾.

ثم بسط لهم فمطروا سبع سنين فقيل لهم: **﴿أو لم يعلموا﴾** أنه لا قابض ولا باسط إلاّ الله عزّ وجلّ.

❋ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾.

﴿اسرفوا على انفسهم﴾ جنوا عليها بالإسراف في المعاصي والغلوّ فيها **﴿لا تقنطوا﴾**، قرئ بفتح النون وكسرها وضمها **﴿إنّ الله يغفر الذنوب جميعًا﴾** يعني بشرط التوبة، وقد تكرّر نكر هذا الشرط في القرآن فكان ذكره فيما نكر فيه نكرًا له فيما لم يذكر فيه لأنّ القرآن في حكم كلام واحد ولا يجوز فيه التناقض وفي قراءة ابن عباس وابن مسعود يغفر الذنوب جميعًا لمن يشاء، والمراد بمن يشاء من تاب لأنّ مشيئة الله تابعة لحكمته وعدله لا لملكه وجبروته وقيل: في قراءة النبيّ ﷺ وفاطمة رضي الله عنها يغفر الذنوب جميعًا ولا يبالي ونظير نفي المبالات نفي الخوف في قوله تعالى: **﴿ولا يخاف عقباها﴾** وقيل قال: أهل مكة يزعم محمد أنّ من عبد الأوثان، وقتل النفس التي حرّم الله لم يغفر له فكيف ولِمَ تهاجر؟ وقد عبدنا الأوثان وقتلنا النفس التي حرّم الله فنزلت، وروي أنه أسلم عياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد ونفر معهما ثم فتنوا وعذبوا، فافتتنوا فكنا نقول لا يقبل الله لهم صرفًا ولا عدلاً أبدًا فنزلت فكتب بها عمر رضي الله عنه إليهم، فاسلموا وهاجروا وقيل: نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه وعن رسول الله ﷺ: ما أحب أنّ لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: فقال رجل: يا رسول الله ومن أشرك فسكت ساعة، ثم قال: الا ومن أشرك ثلاث مرّات[1].

وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾.

﴿وانيبوا إلى ربكم﴾ وتوبوا إليه **﴿واسلموا له﴾** وأخلصوا له العمل، وإنما ذكر الإنابة على أثر المغفرة لئلا يطمع طامع في حصولها بغير توبة وللدلالة على أنها شرط فيها لازم لا تحصل بدونه.

وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾.

﴿واتبعوا احسن ما انزل إليكم من ربكم﴾ مثل قوله الذين يستمعون القول، فيتبعون أحسنه **﴿وانتم لا تشعرون﴾** أي يفجؤكم وأنتم غافلون كأنكم لا تخشون شيئًا لفرط غفلتكم وسهوكم.

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾.

﴿ان تقول نفس﴾ كراهة أن تقول.

فإن قُلْتَ: لم نكرت؟**قُلْتُ:** لأنّ المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر، ويجوز أن يراد نفس متميزة من الأنفس إما بلجاج في الكفر شديد أو بعذاب عظيم ويجوز أن يراد التكسير كما قال الأعشى:

ورب بقيع لو هتفت بجوّه ... أتاني كريم ينفض الرأس مغضبا

وهو يريد أفواجًا من الكرام ينصرونه لا كريمًا واحدًا ونظيره ربّ بلد قطعت ورب بطل قارعت، وقد اختلس الطعنة لا يقصد إلا التكسير، وقرئ يا حسرتي على الأصل ويا حسرتاي على الجمع بين العوض والمعوّض منه والجنب الجانب يقال أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجنب والجانب، ثم قالوا فرّط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه قال سابق البربري:

أما تتقين الله في جنب وامق ... له كبد حرّى عليك تقطع

وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبتّ الأمر في مكان الرجل وحيزه فقد أثبته فيه الا ترى إلى قوله:

إنّ السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربة على ابن الحشرج

ومنه قول الناس: لمكانك فعلت كذا، يريدون لأجلك وفي الحديث: من الشرك الخفيّ أن يصلي الرجل لمكان الرجل[2]، وكذلك فعلت هذا من جهتك فمن حيث لم يبق

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، باب: في معالجة كل ذنب بالتوبة (الحديث رقم: 7137).

فرق فيما يرجع إلى أداء الغرض بين ذكر المكان وتركه قيل: ﴿فرّطت في جنب الله﴾ على معنى فرّطت في ذات الله.

فإن قُلْتَ: فمرجع كلامك إلى أن ذكر الجنب كلا ذكر سوى ما يعطى من حسن الكناية وبلاغتها فكأنه قيل: فرّطت في الله فما معنى فرّطت في الله؟ **قُلْتُ:** لا بدّ من تقدير مضاف محذوف سواء ذكر الجنب، أو لم يذكروا المعنى: فرّطت في طاعة الله وعبادة الله وما أشبه ذلك وفي حرف عبد الله وحفصة في ذكر الله، وما في ما فرّطت مصدرية مثلها في بما رحبت ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ قال قتادة: لم يكفه أن ضيع طاعة الله حتى سخر من أهلها ومحل، وإن كنت النصب على الحال كأنه قال: فرّطت وأنا ساخر أي فرّطت في حال سخريتي، وروي أنه كان في بني إسرائيل عالم ترك علمه وفسق وأتاه إبليس وقال له: تمتع من الدنيا ثم تب فأطاعه وكان له مال فأنفقه في الفجور فأتاه ملك الموت في الذ ما كان فقال: يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله ذهب عمري في طاعة الشيطان وأسخطت ربي فندم حين لم ينفعه الندم فأنزل الله خبره في القرآن.

أَن تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿لو أن الله هداني﴾ لا يخلو إما أن يريد به الهداية بالإلجاء أو بالإلطاف أو بالوحي فالإلجاء خارج عن الحكمة ولم يكن من أهل الإلطاف، فيلطف به وأما الوحي فقد كان ولكنه أعرض ولم يتبعه حتى يهتدي وإنما يقول هذا تحيرًا في أمره وتعللاً بما لا يجدي عليه كما حكى عنهم التعلل بإغواء الرؤساء والشياطين، ونحو ذلك ونحوه لو هدانا الله لهديناكم وقوله:

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾.

﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ ردّ من الله عليه معناه: بلى قد هديت بالوحي فكذبت به واستكبرت عن قبوله وآثرت الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى، وقرئ بكسر التاء على مخاطبة النفس.

فإن قُلْتَ: هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله: لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما بآية! **قُلْتُ:** لأنه لا يخلو إما أن يقدّم على أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهنّ وإما أن تؤخر القرينة الوسطى، فلم يحسن الأوّل لما فيه من تبتير النظم بالجمع بين القرائن وأما الثاني فلما فيه من نقض الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة، ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمني الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها، ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب.

فإن قُلْتَ: كيف صح أن تقع بلى جوابًا لغير منفي؟ **قُلْتُ:** لو أنّ الله هداني فيه معنى ما هديت.

وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾.

﴿كذبوا على الله﴾ وصفوه بما لا يجوز عليه تعالى، وهو متعال عنه[1] فأضافوا إليه الولد والشريك وقالوا هؤلاء شفعاؤنا، وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم وقالوا

---

(1) أخرجه أحمد في المسند 30/3، والحاكم في المستدرك 329/4.

(2) قال أحمد: قد عدا طور التفسير لمرض في قلبه لا دواء له إلا التوفيق الذي حرمه ولا يعافيه منه إلا الذي قدّر عليه هذا الضلال وحتمه، وسنقيم عليه حدّ الردّ؛ لأنه قد أبدى صفحته، ولولا شرط الكتاب لأضربنا عنه صفحاً ولوينا عن الالتفات إليه كشحاً وبالله التوفيق. فنقول: أمّا تعريضه بأن أهل السنّة يعتقدون أن القبائح من فعل الله تعالى، فيرجمه باعتقادهم المشار إليه قوله تعالى بعد آيات من هذه السورة: ﴿الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل﴾، أمّا الزمخشري وإخوانه القدرية، فيغبرون في وجه هذه الآية، ويقولون: ليس خالق كل شيء؛ لأنّ القبائح أشياء وليست مخلوقة له، فاعتقدوا أنهم نزهوا، وإنما أشركوا، وأمّا تعريضه لهم في أنهم يجوّزون أن يخلق خلقاً لا لغرض فلذلك؛ لأنّ أفعاله تعالى لا تعلل؛ لأنه الفعال لما يشاء، وعند القدرية ليس فعالاً لما يشاء؛ لأنّ الفعل إمّا منطو على حكمة ومصلحة فيجب عليه أن يفعله عندهم، وإما عار عنها فيجب عليه أن لا يفعله فأين أثر المشيئة إذاً؛ وأما اعتقاده أنّ في تكليف ما لا يطاق تظليماً لله تعالى فاعتقاد باطل؛ لأنّ ذلك إنما ثبت لازماً لاعتقادهم أنّ الله تعالى خالق أفعال عبيده، فالتكليف بها تكليف بما ليس مخلوقاً لهم، والقاعدة الأولى حق ولازم الحق حق ولا معنى للظلم إلا التصرف في ملك الغير بغير إذنه، والعباد ملك الله تعالى، فكيف يتصوّر حقيقة الظلم منه= تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وأما تعريضه بأنهم يجوّزون أن يؤلم لا لعوض، فيقال له: ما قولك أيها الظنين في إيلام البهائم والأطفال؟ ولا أعواض لها، وليس مرتباً على استحقاق سابق خلافاً للقدرية إذ يقولون: لا بدّ في الألم من استحقاق سابق، أو عوض. وأما اعتقاده أن تجويز رؤية الله تعالى يستلزم اعتقاد الجسمية، فإنه اغترار في اعتقاده بأدلة العقل المجوزة لذلك مع البراءة من اعتقاد الجسمية، ولم يشعر أنه يقابل بهداية قول نبي الهدى عليه الصلاة والسلام إنكم سترون ربكم كالقمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته، فهذا النص الذي ينبو عن التأويل ولا يردع المتمسك به شيء من التهويل، وأما قوله: إنهم يتسترون بالبلكفة فيعني به: قولهم بلا كيف أجل إنها لستر لا تهتكه يد الباطل البتراء، ولا تبعد عن الهدى عين الضلال العوراء، وأما تعريضه بأنهم يجعلون لله أنداداً بإثباتهم معه قدماء فنفي لإثباتهم صفات الكمال كلا والله إنما جعل لله أنداداً القدرية إذ جعلوا أنفسهم يخلقون ما يريدون، ويشتهون على خلاف مراد ربهم حتى قالوا: إن ما شاؤه كان وما شاء الله لا يكون، وأما أهل السنة فلم يزيدوا على أن اعتقدوا أنّ لله تعالى علماً، وقدرة، وإرادة، وسمعاً وبصراً، وكلاماً، وحياة، حسبما دلّ عليه العقل وورد به الشرع، وأي مخلص للقدري إذا سمع قوله تعالى: ﴿وسع ربنا كل شيء﴾ علماً إلا اعتقاد أنّ الله تعالى علماً أو جحد=

والله أمرنا بها ولا يبعد عنهم قوم يسفهونه بفعل القبائح وتجويز أن يخلق خلقًا لا لغرض، ويؤلم لا لعوض ويظلمونه بتكليف ما لا يطاق ويجسمونه بكونه مرئيًا معاينًا مدركًا بالحاسة ويثبتون له يدًا وقدمًا وجنبًا متسترين بالبلكفة، ويجعلون له أندادًا بإثباتهم معه قدماء. ﴿وجوههم مسودّة﴾ جملة في موضع الحال إن كان ترى من رؤية البصر ومفعول ثان إن كان من رؤية القلب.

وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾.

وقرئ: يَنجي ويُنجي ﴿بمفازتهم﴾ بفلاحهم يقال: فاز بكذا إذا أفلح به وظرف بمراده منه وتفسيره المفازة قوله ﴿لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون﴾ كأنه قيل: ما مفازتهم فقيل: لا يمسهم السوء أي: ينجيهم بنفي السوء والحزن عنهم، أو بسبب منجاتهم من قوله تعالى: ﴿فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب﴾[1] أي: بمنجاة منه لأنّ النجاة من أعظم الفلاح وسبب منجاتهم العمل الصالح ولهذا فسر ابن عباس رضي الله عنهما المفازة بالأعمال الحسنة، ويجوز بسبب فلاحهم لأنّ العمل الصالح سبب الفلاح وهو دخول الجنة، ويجوز أن يسمى العمل الصالح في نفسه مفازة لأنه سببها، وقرئ: بمفازاتهم على أنّ لكل متق مفازة.

فإن قُلْتَ: لا يمسهم ما محله من الإعراب على التفسيرين؟ **قُلْتُ:** أما على التفسير الأوّل فلا محل له لأنه كلام مستأنف، وأما على الثاني فمحله النصب على الحال.

لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾.

﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ أي: هو مالك أمرها وحافظها، وهو من باب الكناية لأنّ حافظ الخزائن ومدبر أمرها هو الذي يملك مقاليدها، ومنه قولهم فلان ألقيت إليه مقاليد الملك وهي المفاتيح ولا واحد لها من لفظها وقيل: مقليد ويقال إقليد وأقاليد والكلمة أصلها فارسية.

فإن قُلْتَ: ما للكتاب العربي المبين وللفارسية! **قُلْتُ:** التعريب أحالها عربية كما أخرج الاستعمال المهمل من كونه مهملاً.

فإن قُلْتَ: بما اتصل قوله: ﴿والذين كفروا﴾ **قُلْتُ:** بقوله: ﴿وينجي الله الذين اتقوا﴾ أي: ينجي الله المتقين بمفازتهم، والذين كفروا هم الخاسرون واعترض بينهما بأنه خالق الأشياء كلها وهو مهيمن عليها فلا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين فيها، وما يستحقون عليها من الجزاء وقد جعل متصلاً بما يليه على أنّ كل شيء في السموات والأرض فالله خالقه، وفاتح بابه والذين كفروا وجحدوا أن يكون الأمر كذلك أولئك هم الخاسرون وقيل: سأل عثمان رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ فقال: يا عثمان ما سألني عنها أحد قبلك تفسيرها لا إله إلاّ الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده وأستغفر الله ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير[2]، وتأويله على هذا أنّ لله هذه الكلمات يوحد بها ويمجد وهي مفاتيح خير السموات، والأرض من تكلم بها من المتقين أصابه والذين كفروا بآيات الله وكلمات توحيده وتمجيده أولئك هم الخاسرون.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾.

﴿أفغير الله﴾ منصوب بأعبد و ﴿تامروني﴾ اعتراض ومعناه: أفغير الله أعبد بأمركم وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا، ونؤمن بإلهك أو ينصب بما يدل عليه جملة قوله تأمروني أعبد لأنه في معنى تعبدونني وتقولون لي: اعبد والأصل تأمرونني أن أعبد فحذف أن ورفع الفعل كما في قوله: ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى. ألا تراك تقول أفغير الله تقولون لي أعبده وأفغير الله تقولون لي أعبد فكذلك أفغير الله تأمرونني أن أعبده وأفغير الله تأمرونني أن أعبد والدليل على صحة هذا الوجه قراءة من قرأ أعبد بالنصب، وقرئ تأمرونني على الأصل وتأمروني على إدغام النون أو حذفها.

وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾.

قرئ: ﴿ليحبطنّ﴾ عملك وليحبطنّ على البناء للمفعول ولنحبطنّ بالنون والياء أي: ليحبطنّ الله أو الشرك.

فإن قُلْتَ: الموحَى إليهم جماعة فكيف قال: ﴿لئن أشركت﴾ على التوحيد؟ **قُلْتُ:** معناه أوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك وإلى الذين من قبلك مثله، وأوحي إليك وإلى كل واحد منهم لئن أشركت، كما تقول كسانا حلة أي كل واحد منا.

= آيات الله، وإطفاء نوره ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وأما قوله: إنهم يثبتون لله تعالى يداً وقدماً ووجهاً فذلك قرية ما فيها مرية ولم يقل بذلك أحد من أهل السنة، وإنما أثبت القاضي أبو بكر صفات سمعية وردت في القرآن: اليدان، والعينان، والوجه ولم يتجاوز في إثباتها ما وردت عليه في كتاب الله العزيز على أنّ غيره من أهل السنة حمل اليدين على القدرة، والنعمة، والوجه على الذات، وقد مرّ ذلك في مواضع من الكتاب، فقد =

= اتصف في هذه المباحثة بحال من بحث بظلفه عن حتفه، وتعريضه معتقده الفاسد لهتك ستره، وكشفه، وإنما حملني على إغلاظ مخاطبته الغضب لله تعالى ولرسوله ﷺ وأهل سننه، فإنه قد أساء عليهم الأدب ونسبهم بكتبه إلى الكذب والله الموعد.

(1) سورة آل عمران، الآية: 188.

(2) أخرجه أبو يعلى، وذكره العقيلي.

فإن قُلْتَ: ما الفرق بين اللامين؟ **قُلْتُ:** الأولى موطئة للقسم المحذوف والثانية لام الجواب وهذا الجواب سادّ مسدّ الجوابين أعني جوابي القسم والشرط.

فإن قُلْتَ: كيف صح هذا الكلام مع علم الله تعالى أنّ رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم؟ **قُلْتُ:** هو على سبيل الفرض والمحالات يصح فرضها لأغراض فكيف بما ليس بمحال ألا ترى إلى قوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعًا يعني: على سبيل الإلجاء ولن يكون ذلك لامتناع الداعي إليه ووجود الصارف عنه.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله: **﴿ولتكونن من الخاسرين﴾**؟ **قُلْتُ:** يحتمل ولتكونن من الخاسرين بسبب حبوط العمل ويحتمل ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين الذين خسروا أنفسهم إن مت على الردّة، ويجوز أن يكون غضب الله على الرسول أشدّ فلا يمهله بعد الردّة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إذًا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾[1].

بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾.

﴿بل الله فاعبد﴾ ردّ لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم كأنه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته بل إن كنت عاقلاً فاعبد الله فحذف الشرط، وجعل تقديم المفعول عوضًا منه **﴿وكن من الشاكرين﴾** على ما أنعم به عليك من أن جعلك سيد ولد آدم وجوّز الفراء نصبه بفعل مضمر هذا معطوف عليه تقديره بل الله أعبد، فاعبد لما كان العظيم من الأشياء إذا عرفه الإنسان حق معرفته، وقدره في نفسه حق تقديره عظمه حق تعظيمه قيل:

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾.

﴿وما قدروا الله حق قدره﴾، وقرئ بالتشديد على معنى وما عظموه كنه تعظيمه، ثم نبههم على عظمته وجلاله شأنه على طريقة التخييل فقال: **﴿والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾**، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو وبجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة، أو جهة مجاز وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجبال على أصبع والشجر على أصبع والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، ثم يهزهنّ فيقول: أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال ثم قرأ تصديقًا له **﴿وما قدروا الله حق قدره﴾**[2] الآية وإنما ضحك أفصح العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ولكن فهمه وقع أوّل شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هواناً لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبادة في مثل هذه الطريقة من التخييل، ولا ترى بابًا في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء، فإنّ أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث، والتنقير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علمًا لو قدروه حق قدره لما تخفى عليهم أنّ العلوم كلها مفتقرة إليه، وعيال عليه إذ لا يحل عقدها المؤربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو وكم آية من آيات التنزيل، وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأنّ من تأوّل ليس من هذا العلم في عير ولا نفير، ولا يعرف قبيلاً منه من دبير والمراد بالأرض الأرضون السبع يشهد لذلك شاهدان قوله جميعًا وقوله والسموات، ولأنّ الموضع موضع تفخيم وتعظيم فهو مقتض للمبالغة ومع القصد إلى الجمع وتأكيده بالجميع أتبع الجميع مؤكده قبل مجيء الخبر ليعلم أوّل الأمر أن الخبر الذي يرد لا يقع عن أرض واحدة، ولكن عن الأراضي كلهن والقبضة المرة من القبض «فقبضت قبضة من أثر الرسول» والقبضة بالضم المقدار المقبوض بالكف ويقال أيضًا أعطني قبضة من كذا تريد معنى القبضة تسمية بالمصدر كما روي أنه نهى عن خطفة السبع[3] وكلا المعنيين محتمل والمعنى والأرضون جميعًا قبضته أي: ذوات قبضته يقبضهن قبضة واحدة يعني: أنّ الأرضين مع عظمهن وبسطتهن لا يبلغن إلا قبضة واحدة من قبضاته كأنه يقبضها قبضة بكف واحدة كما تقول الجزور أكلة لقمان والقلة جرعته أي ذات أكلته وذات جرعته تريد أنهما لا يفيان إلا بأكلة فذة من أكلاته وجرعة فردة من جرعاته، وإذا أريد معنى القبضة فظاهر لأنّ المعنى أن الأرضين بحملتها مقدار ما يقبضه بكف واحدة.

فإن قُلْتَ: ما وجه قراءة من قرأ قبضته بالنصب! **قُلْتُ:** جعلها ظرفًا مشبهًا للمؤقت بالمبهم، مطويات من الطي الذي هو ضدّ النشر كما قال تعالى: **﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب﴾**[4] وعادة طاوي السجل أن يطويه

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 75.

(2) راجع الحديث رقم 1/121.

(3) أخرجه الدارمي في كتاب: الأضاحي، باب: ما لا يؤكل من السباع= = (الحديث: 1981).

(4) سورة الأنبياء، الآية: 104.

بيمينه وقيل: قبضته ملكه بلا مدافع ولا منازع وبيمينه بقدرته، وقيل: مطويات بيمينه مفنيات بقسمه لأنه أقسم أن يفنيها ومن اشتم رائحة من علمنا هذا، فليعرض عليه هذا التأويل ليلتهي بالتعجب منه ومن قائله ثم يبكي حمية لكلام الله المعجز بفصاحته وما مني من به أمثاله، وأثقل منه على الروح وأصدع للكبد تدوين العلماء قوله واستحسانهم له وحكايته على فروع المنابر واستجلاب الاهتزاز به من السامعين، وقرئ مطويات على نظم السموات في حكم الأرض ودخولها تحت القبضة ونصب مطويات على الحال ﴿سبحانه وتعالى﴾ ما أبعد من هذه قدرته وعظمته وما أعلاه عما يضاف إليه من الشركاء.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾.

فإن قُلْتَ: ﴿اخرى﴾ ما محلها من الإعراب؟ **قُلْتُ:** يحتمل الرفع والنصب أما الرفع فعلى قوله: ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة﴾[1] وأما النصب فعلى قراءة من قرأ نفخة واحدة والمعنى: ونفخ في الصور نفخة واحدة ثم نفخ فيه أخرى وإنما حذفت لدلالة أخرى عليها، ولكونها معلومة بذكرها في غير مكان وقرئ قيامًا ينظرون يقلبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذا فاجأه خطب، وقيل: ينظرون ماذا يفعل بهم ويجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف والجمود في مكان لتحيرهم.

وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾.

قد استعار الله عز وجل النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل وهذا من ذاك والمعنى: ﴿وأشرقت الأرض﴾ بما يقيمه فيها من الحق والعدل، ويبسطه من القسط في الحساب ووزن الحسنات والسيئات وينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل وإضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزينها حيث ينشر فيها عدله وينصب فيها موازين قسطه، ويحكم بالحق بين أهلها ولا ترى أزين للبقاع من العدل ولا أعمر لها منه وفي هذه الإضافة أن ربها وخالقها هو الذي يعدل فيها وإنما يجوز فيها غير ربها ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب والمجيء بالنبيين والشهداء، والقضاء بالحق، وهو النور المذكور وترى الناس يقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك كما تقول: أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»[2]. وكما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم، وقرئ وأشرقت على البناء للمفعول من شرقت بالضوء تشرق إذا امتلأت به واغتصت وأشرقها الله كما تقول: ملأ الأرض عدلاً وطبقها عدلاً و﴿الكتاب﴾ صحائف الأعمال ولكنه اكتفى باسم الجنس وقيل: اللوح المحفوظ ﴿والشهداء﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم من الحفظة والأخيار وقيل: المستشهدون في سبيل الله الزمر الأفواج المتفرقة بعضها في أثر بعض، وقد تزمروا قال حتى احزألت زمر بعد زمر وقيل: في زمر الذين اتقوا هي الطبقات المختلفة الشهداء والزهاد والعلماء والقراء وغيرهم، وقرئ نذر منكم.

فإن قُلْتَ: لم أضيف إليهم اليوم؟ **قُلْتُ:** أرادوا لقاء وقتكم هذا وهو وقت دخولهم النار لا يوم القيامة، وقد جاء استعمال اليوم والأيام مستفيضًا في أوقات الشدّة.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾.

﴿قالوا بلى﴾ أتونا وتلوا علينا ولكن وجبت علينا كلمة الله لأملأنّ جهنم لسوء أعمالنا كما قالوا: غلبت علينا شقوتنا وكنا قومًا ضالين فذكروا عملهم الموجب لكلمة العذاب وهو الكفر والضلال.

قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾.

اللام في المتكبرين للجنس لأنّ ﴿مثوى المتكبرين﴾ فاعل بئس وبئس فاعلها اسم معرف بلام الجنس أو مضاف إلى مثله والمخصوص بالذم محذوف تقديره فبئس مثوى المتكبرين جهنم.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾.

﴿حتى﴾ هي التي تحكى بعدها الجمل والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلا أنّ جزاءها محذوف، وإنما حذف لأنه في صفة ثواب أهل الجنة فدل بحذفه على أنه شيء لا يحيط به الوصف وحق موقعه ما بعد خالدين وقيل: حتى إذا جاؤها جاؤها وفتحت أبوابها أي مع فتح أبوابها وقيل: أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وأما أبواب الجنة فمتقدّم فتحها بدليل قوله: جنات عدن مفتحة

---

(1) سورة الحاقة، الآية: 13.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: المظالم، باب: الظلم ظلمات (الحديث: 2447)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: البر والصلة...، باب تحريم الظلم الحديث: (57، 2579).

لهم لأبواب فلذلك جيء بالواو كأنه قيل: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها.

فإن قُلْتَ: كيف عبر عن الذهاب بالفريقين جميعًا بلفظ السوء؟ **قُلْتُ:** المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحثها إسراعًا بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بما يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فشتان ما بين السوقين **﴿طبتم﴾** من دنس المعاصي، وطهرتم من خبث الخطايا **﴿فادخلوها﴾** جعل دخول الجنة مسببًا عن الطيب والطهارة فما هي إلا دار الطيبين ومثوى الطاهرين لأنها دار طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل قذر فلا يدخلها إلا مناسب لها موصوف بصفتها، فما أبعد أحوالنا من تلك المناسبة وما أضعف سعينا في اكتساب تلك الصفة إلا أن يهب لنا الوهاب الكريم توبة نصوحًا تنقى أنفسنا من دون الذنوب وتميط وضر هذه القلوب **﴿خالدين﴾** مقدرين الخلود.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾.

﴿الأرض﴾ عبارة عن المكان الذي أقاموا فيه واتخذوه مقرًا ومتبوأ، وقد أورثوها أي ملكوها وجعلوا ملوكها وأطلق تصرفهم فيها كما يشاؤن تشبيهًا بحال الوارث وتصرفه فيما يرثه واتساعه فيه وذهابه في إنفاقه طولاً وعرضًا.

فإن قُلْتَ: ما معنى قوله **﴿حيث نشاء﴾** وهل يتبوأ أحدهم مكان غيره! **قُلْتُ:** يكون لكل واحد منهم جنة لا توصف سعة وزيادة على الحاجة فيتبوأ من جنته حيث يشاء ولا يحتاج إلى جنة غيره.

وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿حافين﴾ محدقين من حوله: **﴿يسبحون بحمد ربهم﴾** يقولون: سبحان الله والحمد لله متلذذين لا متعبدين.

فإن قُلْتَ: إلام يرجع الضمير في قوله **﴿بينهم﴾**؟ **قُلْتُ:** يجوز أن يرجع إلى العباد كلهم وأن إدخال بعضهم النار وبعضهم الجنة لا يكون إلا قضاء بينهم بالحق والعدل، وأن يرجع إلى الملائكة على أن ثوابهم وإن كانوا معصومين جميعًا لا يكون على سنن واحد، ولكن يفاضل بين مراتبهم على حسب تفاضلهم في أعمالهم فهو القضاء بينهم بالحق.

فإن قُلْتَ: قوله **﴿وقيل الحمد لله﴾** من القائل ذلك؟ **قُلْتُ:** المقضي بينهم إما جميع العباد وإما الملائكة كأنه قيل: وقضى بينهم بالحق وقالوا الحمد لله على قضائه بيننا بالحق، وإنزال كل منا منزلته التي هي حقه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الزمر لم يقطع الله رجاءه يوم القيامة، وأعطاه الله ثواب الخائفين الذين خافوا». وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ: كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة غافر مكية

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾.

قرئ بإمالة الف حا وتفخيمها وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أين، وكيف أو النصب بإضمار اقرأ ومنع الصرف للتأنيث والتعريف أو للتعريف وأنها على زنه أعجمي نحو قابيل وهابيل التوب والثوب والأوب أخوات في معنى الرجوع والطول والفضل والزيادة يقال لفلان على فلان طول والإفضال يقال: طال عليه وتطوّل إذا تفضل.

غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾.

فإن قُلْتَ: كيف اختلفت هذه الصفات تعريفًا وتنكيرًا والموصوف معرفة يقتضي أن يكون مثله معارف؟ **قُلْتُ:** أمّا غافر الذنب، وقابل التوب فمعرفتان لأنه لم يرد بهما حدوث الفعلين وأنه يغفر الذنب ويقبل التوب الآن أو غدًا حتى يكونا في تقدير الانفصال، فتكون إضافتهما غير حقيقية وإنما أريد ثبوت ذلك ودوامه فكان حكمهما حكم إله الخلق ورب العرش، وأما شديد العقاب فأمره مشكل لأنه في تقدير شديد عقابه لا ينفك من هذا التقدير، وقد جعله الزجاج بدلاً وفي كونه بدلاً وحده بين الصفات نبوّ ظاهر والوجه أن يقال لما صودف بين هؤلاء المعارف هذه النكرة الواحدة، فقد آذنت بأنّ كلها أبدال غير أوصاف ومثال ذلك قصيدة جاءت تفاعيلها كلها على مستفعلن فهي محكوم عليها بأنها من بحر الرجز، فإن وقع فيها جزء واحد على متفاعلن كانت من الكامل ولقائل أن يقول هي صفات وإنما حذف الألف، واللام من شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا فقد غيروا كثيرًا من كلامهم عن

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2/434. وأخرجه أحمد في المسند: 6/68. وعند أبي يعلى تنزيل السجدة والزمر (الحديث: 7643) و(4764).